

شنطة سلمى التي تعرف

حمادة حامد محمود نور الدين

في صباحٍ باردٍ من أيّام الشتاء، فتحت سلمى حقيبتها المدرسيّة، فوجدت فيها شيئًا لم تضعه هي.

رغيفُ خبزٍ ساخن، ملفوفٌ بمنديلٍ أبيض، وبجانبه ورقةٌ صغيرة مكتوبٌ عليها بخطٍّ مرتعش: «للتي نسيت فطورها».

وقفت سلمى في وسط الغرفة وعيناها تتّسعان. فقد كانت فعلًا قد نسيت فطورها هذا الصباح! كانت متأخّرة، وأمّها مريضة في السرير، وقد خرجت بلا لقمة. فمن علم بذلك؟ ومن وضع الرغيف في حقيبتها وهي نائمة؟

نظرت حولها. الباب مغلقٌ بالمفتاح. النافذة مغلقة. حتى القطّ الرماديّ كان نائمًا على الكنبة لا يتحرّك.

«غريب»، همست سلمى، وأخذت الرغيف وهي تفكّر. كان طعمه لذيذًا، طعم خبزٍ يشبه خبز جدّتها التي ماتت قبل عامين.



وفي اليوم التالي، حدث الشيء نفسه. لكنّ الورقة هذه المرّة قالت: «للتي نسيت قلمها». وكان في الحقيبة قلمٌ أزرق جميل، له رأسٌ على شكل نجمة.

وفي اليوم الثالث: «للتي تخاف من الامتحان». وكان في الحقيبة حجرٌ أملس صغير، دافئٌ كأنّه أُخرج للتوّ من كفّ إنسان، وتحته جملةٌ كُتبت بخطٍّ أدقّ: «احمله في جيبك، فيصير قلبك أهدأ».

لم تتحمّل سلمى بعد ذلك. جلست على سريرها وقالت لنفسها بصوتٍ حازم: «يجب أن أعرف من يفعل هذا. سأكون محقّقةً صغيرة!»

ذهبت إلى صديقها الوحيد، مروان، وكان يجلس في فناء المدرسة يقرأ كتاب ألغاز. حكت له القصة كلّها، فاتّسعت عيناه وقال: «يا سلمى! هذه مغامرة حقيقيّة! ولدينا ثلاثة أدلّة: الخبز، والقلم، والحجر. لا بدّ أنّ الفاعل شخصٌ يعرف عنك كلّ شيء. شخصٌ يراقبك».

«يراقبني؟» ارتجفت سلمى قليلًا. «لكنّه لطيف».

«ربّما»، قال مروان وهو يفتح دفتره. «لكنّ اللطف لا يمنع السرّ. دعينا نفكّر. من يعرف أنّك نسيتِ فطورك؟ ومن يعرف أنّك خائفة من الامتحان، وأنت لم تخبري أحدًا؟»

صمتت سلمى. ثم قالت ببطء: «لم أخبر أحدًا... إلّا نفسي، وأنا أصلّي قرب النافذة ليلًا».

نظرا إلى بعضهما. ثم انفجرا معًا: «النافذة!»

في تلك الليلة، لم تنم سلمى. تظاهرت بالنوم، وأطفأت المصباح، وجلست خلف الستارة تحدّق في الظلام بقلبٍ يدقّ كالطبل. وكان مروان قد وعدها أن يكون في الحارة القريبة في حال احتاجت مساعدة.

مرّت ساعة. ثم ساعتان. وكادت عيناها تُغلقان حين سمعت صوت خطواتٍ خفيفةٍ جدًّا على الأرض. خطواتٍ صغيرة، بطيئة، كأنّ من يمشي بها يحاول ألّا يوقظ أحدًا.

انفتحت النافذة ببطء. ودخل منها ضوء القمر الفضّيّ، وفي وسط ضوئه ظهرت يدٌ صغيرةٌ مجعّدة تحمل كيسًا قماشيًّا. ثم ظهر وجه.



لم يكن وحشًا، ولا لصًّا، ولا جنّيًّا. كانت امرأةً عجوزًا صغيرة الحجم جدًّا، ظهرها محنيّ، وعلى رأسها منديلٌ مزهر، وعيناها تلمعان بدموعٍ هادئة.

كادت سلمى تصرخ، لكنّ العجوز رفعت إصبعها إلى شفتيها وهمست: «هششش، لا توقظي أمّك».

«من أنتِ؟» همست سلمى وهي تخرج من خلف الستارة.

«أنا أمّ فتحي، جارتكم في آخر الحارة. أراكِ منذ كنتِ صغيرة تلعبين تحت شجرة التوت. وحين ماتت جدّتك، وعدتُها قبل أن تغمض عينيها أن أعتني بكِ من بعيد».

«جدّتي؟» تجمّدت سلمى.

«كانت صديقتي الوحيدة منذ ستّين عامًا»، قالت العجوز، ومسحت دمعةً بكمّها. «وقالت لي: سلمى خجولة، لا تطلب شيئًا ولو احتاجته. فاحرصي ألّا ينقصها شيء، لكن لا تجعليها تشعر بالصدقة. فصرتُ أتسلّل ليلًا وأضع ما تحتاجينه، وأنا أعرفه من نظرتك فقط».

لم تتمالك سلمى نفسها. ركضت واحتضنت العجوز بقوّة، فشعرت بأنّ جسدها صغيرٌ وهشّ كطيرٍ، لكنّه دافئٌ كالخبز الذي وجدته.

«كان يجب أن تقولي لي!»

«لو قلتُ لكِ، لشعرتِ بالحرج، وربّما رفضتِ. أمّا الآن فقد عرفتِ، ولم يعد سرًّا».

ضحكت سلمى وبكت معًا. وقالت: «لكنّني أريد أن أردّ لكِ الجميل!»

«ردّيه لمن يحتاجه»، قالت أمّ فتحي وغمزت. «ففي الحارة غيرك، ألا تظنّين؟»

وفي صباح اليوم التالي، وقفت سلمى أمام بوّابة المدرسة وفي حقيبتها رغيفان من الخبز، وقلمان، وحجران صغيران. رأت طفلًا جديدًا يقف وحده وعيناه حزينتان، فاقتربت منه وناولته رغيفًا في منديلٍ أبيض، وقالت بهمسٍ بسيط: «للذي نسي أن يبتسم».

ابتسم الولد. وكانت أوّل ابتسامةٍ في صباحه كلّه.

ومنذ ذلك اليوم، صارت في حارتنا حكايةٌ يتناقلها الأطفال: أنّ هناك حقيبةً عجيبة تعرف ما ينقصك. لكنّ الأذكياء منهم يعرفون السرّ الحقيقيّ: ليست الحقيبة هي العجيبة، بل القلوب التي تضع فيها.

— النهاية —

حمادة حامد محمود نور الدين

https://dakkan-alhikayat.netlify.app